تعريف الإرهاب

الدكتور عبد الستار قاسم

29/أيار/2003

تعبير الإرهاب أصبح شائعا في وسائل الإعلام وعلى ألسنة العديد من السياسيين. كثف الأمريكيون استعمال التعبير حسب هواهم وفرضوه موضوعا جوهريا ومحوريا على الحركة العالمية في كافة المجالات، وعملوا على تكييف الجدل الأممي حسبما يرون أنه المفهوم الصحيح للمصطلح. وعلى الرغم من أن جدلا واسعا يدور حول تعريف المصطلح، إلا أن الأمريكيين يعملون بإصرار على فرض تعريفهم والذي ينص على أنه محاولة مجموعات مسلحة أو تنظيمات استعمال القوة لتحقيق أهداف سياسية. بهذا التعريف يحاول الأمريكيون استبعاد أنفسهم والإسرائيليين من دائرة الإرهابيين. ومن حيث أنهم يتعمدون إخراج فكرة العدوان من التعريف واستثناء الدول من التهمة فإنهم أتوا بصياغة مساندة مثل الدول الداعمة للإرهاب أو التي تؤويه لشمل الدول التي لا تعجبهم تصرفاتها تحت طائلة الإرهاب.

التعريف الأمريكي ساذج وغير مقبول ويتناقض تماما مع نظريات علم النفس والرأي العلمي في الإرهاب، وهو مصاغ بطريقة تتوافق مع السياسة الأمريكية وليس مع القيم والمثل التي يمكن أن تلقى قبولا عالميا. اعترض كثيرون على هذا التعريف وبالأخص سوريا مسنودة من قبل عدد قليل من الدول، ودعت إلى حوار على مستوى الأمم المتحدة من أجل التوصل إلى تعريف عالمي للإرهاب يُلزم كل الدول الأعضاء في الأمم المتحدة. يقوم الجدل السوري على أن الإرهاب لا تمارسه تنظيمات أو مجموعات فقط وإنما تمارسه الدول أيضا وعلى رأسها إسرائيل. أمريكا رفضت الفكرة السورية وبقيت تصر على حصر التعريف بالتنظيمات والمجموعات. لا تخلو الساحة العالمية من اجتهادات أخرى بشأن التعريف، لكن بقي الجدل بين العرب وأمريكا هو الأكثر شيوعا والذي خبأ في ثناياه موقع إسرائيل من الإرهاب.

تعريف

أرى أن تعريف الإرهاب يمكن أن يكون كالتالي: **<u>الإرهاب هو ممارسة متعمّدة للقوة قائمة على تخويف أناس فرادى أو جماعات بصورة مباشرة أو غير مباشرة معنويا أو ماديا بهدف ردعهم عن القيام بعمل أو تطويعهم للقيام بعمل.</u>** سيلاقي هذا التعريف بعض التحديات، لكن الموضوع يستحق أن يطرح للتداول والنقاش. يتصدر الغرب الآن بخاصة الولايات المتحدة الأمريكية طاولة التعريف بالإرهاب محاولا جر الدول جرا نحو ما يراه تعريفا مناسبا. ونحن في المنطقة العربية والعالم الإسلامي أشد من يتأثر بالتعريفات الغربية، وعلينا ألا نبقي الساحة خالية.

يشتمل التعريف أعلاه على عدد من المضامين أهمها:

أولا: أنه لا يكاد أن يكون هناك شخص لا يمارس الإرهاب. هذا صحيح حيث أننا جميعا، على مستوى الأفراد أو الجماعات أو الدول أو الهيئات، نمارس التخويف بطريقة أو بأخرى من أجل التأثير على سلوك الآخرين أو مواقفهم العملية. يمارس الأب أحيانا الإرهاب ضد ابنه والزوج ضد زوجه. التهديد بالطلاق عبارة عن إرهاب، والقرار بعدم السماح لابنه في المشاركة برحلة مدرسية عبارة عن إرهاب. وكذلك الأمر بالنسبة للمدير الذي يملك في يده سلاح الترقيات أو زيادة المخصصات الشهرية. وبالنسبة للمدرس الذي يملك سلاح العلامات.

ثانيا: المصطلح محايد بمعنى أنه لا يحمل في طياته قيم الخير فقط أو قيم الشر فقط. قد يمنع الأب عن ابنه مالا ليردعه عن لهو يؤثر سلبا على تحصيله العلمي، وقد يهدد المدير موظفه بسبب عدم تعامله اللطيف مع الجمهور. لكن من الممكن أن يضرب زوج زوجه لأنها تحاول منعه من تبذير المال، أو أن يهدد جار جاره بهدف إخفاء جريمة. أي أن تعبير الإرهاب يشتمل على أعمال قد تصب في أهداف خيرة أو أهداف شريرة، وتبقى مسألة الحكم على العمل خاضعة لرؤى ذاتية أكثر من خضوعها لرؤى موضوعية. صحيح أن كلمة إرهاب قد اكتسبت معنى انطباعيا سلبيا لكنها ليست بالضرورة كذلك.

ثالثا: الإرهاب جزء لا يتجزأ من النشاط الإنساني العام وهو أحد العوامل الهامة في ترتيب العلاقات بين الناس. منذ فجر التاريخ حتى الآن والإنسان يمارس الإرهاب ضد أخيه الإنسان لأسباب قد تنطوي على خير وقد تنطوي على شر، وهكذا فعلت المجتمعات والدول والإمبراطوريات والقبائل حيال بعضها البعض. الأفراد والمجتمعات والدول لا يتصرفون كما يحلو لهم، بل أن لكل حساباته ومن هذه الحسابات ما يقوم على الخوف من آخرين أو قوانين يسهر آخرون على تطبيقها. ولو لم يكن الأمر كذلك لعمت المجتمعات والأمم فوضى واسعة وعميقة. بمعنى أن للإرهاب دورا تنظيميا كما يمكن أن يكون له دور تغييري.

رابعا: حيث أن القوة متوفرة لدى الناس أفرادا وجماعات بشكل أو بآخر يستطيع كل فرد أو دولة أو هيئة ممارسة الإرهاب. الأقوى غير موجود والقوة نسبية ويستطيع كل فرد مهما بلغ مما نظنه ضعفا أن يستغل ما لديه من قوة مهما كانت واهية لإرهاب آخرين قد نظنهم أقوى منه. الثور قوي لكنه بإمكان طفل أن يستدرجه إلى قفص.

خامسا: على الرغم من أن هذه النقطة مشمولة بالنقاط أعلاه إلا أن إبرازها لا يضير، وهي أن الإرهاب لا يستهدف جهات خارجية فقط وإنما يستهدف جهات داخلية أيضا. أي أن الحكومة المستبدة التي توظف أجهزة مخابراتها لملاحقة الناس إرهابية، وكذلك تلك التي تستعمل أدوات الفساد.

الإرهاب والعدوان

ربما يقف من يحتج على هذا التعريف منطلقا مما يدور الآن في وسائل الإعلام في مختلف أنحاء العالم وعلى ألسنة العديد من السياسيين. لكن هذا الاحتجاج لا ينطلق من بعد فكري بقدر ما يستند على الغوغائية (الديماغوغية) الأمريكية في تفسير الأمور. العدوان هو التعبير الصحيح لتحميل العمل قيمة سلبية وليس الإرهاب. العدوان عبارة عن انتهاك صريح لحقوق الآخرين ولا يحمل أي بعد إيجابي. وهذا ما يدفع دول الغرب إلى استخدام كلمة إرهاب (terrorism) بدل كلمة عدوان (aggression). الغربيون يستطيعون القيام بالعدوان بسبب قدراتهم القتالية المباشرة العالية ولهم تبريراتهم في السيطرة على الشعوب ونهب ثرواتها وإعمال القتل في رقابها، لكنهم لا يستطيعون وقف أعمال الباحثين عن الحقوق والعدل فيسمونهم إرهابيين. العدوان أشد وطأة ويحتكر البعد السلبي، وقد يكون الإرهاب رد من لا يملك وسائل قتالية متطورة على من يملكها. من المحتمل أن يكون الإرهاب سلاح ردع ضد المعتدي، ومن الجلي أن العدوان لا بد أن يولد قوى تعمل على ردعه.

الاستجابة العربية

من الملاحظ أن العرب، حكاما وشعوبا، من أكثر الأمم استجابة للطروحات والأفكار الغربية إلى درجة أن الكثيرين منهم اقتنعوا بأنهم إرهابيون وبأن رؤيتهم للحياة ظلامية متخلفة. تتعدد أسباب سرعة الاستجابة واتساعها لكنه من المحتمل أن الهزائم المتكررة في مختلف المجالات قد ولدت عقد نقص حادة بحيث ضعفت الثقة بالذات لصالح الثقة بالمنتصر. ويبدو أن الحكومات العربية ووسائل الإعلام قد أصبحت في كثير من الأحيان "ملكية أكثر من الملك" في حملها لفكرة الإرهاب الأمريكية إلى درجة أن الحكام الذين يسرقون أموال الشعوب ويسفكون دماءها ويزجون المعارضين في غياهب السجون أخذوا يتحدثون عن المحبة والحفاظ على نفوس الأبرياء.

عرب كثيرون ومسلمون يحملون الطبول ليقرعوها تأييدا للولايات المتحدة في مكافحة الإرهاب ودون أن يحاولوا صياغة تعريف خاص لهم بالإرهاب. وهم يقولون أن الإسلام ضد الإرهاب ويحفظون آية أو آيتين حول قتل النفس والسلام، في حين أن معالجة الإسلام للموضوع مختلفة تماما. هل تأمل هؤلاء قول الله سبحانه: "يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي فارهبون." (البقرة، 40) أو قوله: "ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون." (الأعراف، 154). ومن الضروري تذكير المسلمين بآية يرددونها باستمرار وهي: "وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون." (الأنفال، 60) سأتناول هذا الموضوع لاحقا بالتفصيل، لكن تكفي الإشارة هنا إلى أن المنجاة في اتباع الله سبحانه وليس في اتباع أمريكا. الإسلام ضد العدوان وضد إيقاع الظلم بالآخرين وضد إيذاء الأبرياء أو قتلهم أو تعريضهم للخطر، لكنه أيضا ضد الخنوع والاستسلام لغير الله سبحانه. وما حصل في الولايات المتحدة وغيرها غير ناجم عن رغبة مسلم في تجاوز حدود الله وإنما عن الظلم المرعب الذي تمارسه الولايات المتحدة ضد العرب والمسلمين. الجدل حول جدوى ما جرى في الولايات المتحدة وما يمكن أن يجري لا يفيد الشيء الكثير أمام أمر موضوعي يتعلق بالفعل ورد الفعل. كثيرون هم في البلاد العربية والإسلامية الذين يرون ضرورة ضرب الولايات المتحدة في عقر دارها، وهناك كثيرون آخرون يرون في ذلك إساءة للعرب وللمسلمين. وإذا أردنا أن نصل إلى نتيجة تنتهي معها دوامة الفعل ورد الفعل فإنه ليس أمامنا سوى البحث عن الأسباب ومعالجتها لا أن نطبّل مع المطبلين الأمريكيين.

هذا ومن الواضح أن المعنى الإسلامي للإرهاب يأخذ البعد الردعي وليس العدواني. المقصود هو اكتساب القوة حتى لا يجرؤ الآخرون على مهاجمة المسلمين.

وهنا لا بد من التوضيح أنه إذا أردنا أن ندور حول التعاريف الدولية المطروحة سواء عربية أو أمريكية فإننا لا نستطيع أن نتجاوز إرهاب الدول ضد أبناء شعبها. أي أن التعريف الأمريكي يجب توسيعه ليشمل ممارسة الولايات المتحدة ضد الدول الأخرى وضد الشعوب بمن فيها شعبها، ويجب توسيع التعريف السوري ليشمل ممارسات الأنظمة العربية ضد الشعوب العربية بما فيها ممارسات الحكومة السورية الداخلية. وفي كل الأحوال، البادئ هو الأظلم.